وتتحد الام اتحادا مطلقا بالارض . لكن الارض صارت يبابا : سيطر عليها التنين واعتلى عرشها وقتل الملك الصالح وحمل الميزان ليرجح كفة الشر استجابة لطبيعته الشريرة . وتحول الكون كهفا ضلت الشمس طريقها اليه فتجمد فيه الزمن كما تجمد في كهف الفتية المؤمنين : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » (الاية) لكن هل يكون هذا القبر رحما يتفتح عن الحياة ام هل سيظل قبرا متجمدا لن يطاله دفء ونور ؟ ان التنين انشب انيابه في وجه الام وادماه واستقرت حربة الخضر في وجهها ايضا لانه خضر قتيل لا يعرف اين يصوب حرابه . فكانت الضحية ضحيتين :ضحية التنين الشرير وضحية البطل الميت . ويبرز اتحاد الام بالارض في ان وجهها المدمى الذي التمع فيه الناب والحربة هو نفسه الارض اليباب التي امتص التنين منها الدفء والحياة وتركها وحيدة تبحث عن اله يتخفى وراء جدران الصمت ويهرب الى سماء مجدبة تعاني موت الصحراء . ويتجمد في عروق الام دم الحياة وتنهار السي حفرة اللامبالاة ويكون ذلك اعلانا عن موتها هي ايضا ، يقول :

ما وحوش تدمي الميزان والعرش
وترهو وتغالي
تدفع الارض الى كهف
تضل الشمس عنه ، ومصابيح الليالي ،
ما التماع الناب والحربة
في وجهي المدمي
خصرتي ، لحمي ، دمي
ارضي التي يمتصها كابوس حمى
ما جدار الصمت في وجه الله
يتشاءى عبر صحراء الاعالي
في عروق الام صمت حجري لا يجالي

قدم خليل حاوي في قصيدة « الام الحزينة » صورة قاتمة للانسان العربي والحضارة العربية . وكانت القصيدة رؤيا سوداء فاجعة جسدت صورا متعددة لموت كلي لا ينذو انه يبشر بالانبعاث . لكن القصيدة تحمل بصيصا خافتا من النور يتمثل في الانسان الفلسطيني الذي ما زال يحافظ على مفتاح داره في فلسطين وان تآكله الصدأ ، لان الامل يزاوده بالعودة . هذا النبض الذي تكشفت عنه الرؤيا كان نبوءة بتحرك فلسطيني تحقق في السنوات التالية في انطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية .

بعد هذه القصيدة صمت خليل حاوي مدة اربع سنوات : احس بالاختناق من الرؤيا الجحيمية التي انشبت اظفارها في جسده وروحه ، وغصت الكلمة بالرؤيا ولم تستطع أن تجسد ما فيها من رعب وهول . وفي عام ١٩٧١ كتب قصيدة « ضباب وبروق » التي تعبر عن مرارة من اعتاد الهزيمة فصارت جزءا طبيعيا من حياته اليومية ، فاختفى الحزن لتحل محله سخرية مريرة اشد ايلاما من الحزن . وكان الضباب الذي يحجب الرؤية هو العنصر المسيطر على القصيدة ، لان الشاعر ما زال يعيش في كهف الرؤيا القاتمة لا يستطيع ان يرى خلالها غير سواد متحجر . لكن هناك بروقا تلمع وتخبو وسط الضباب . هل هي بروق حقيقية تبشر بمطر قريب ام انها مجرد سراب مدع متلون ؟ ان الشاعر في